ليل




قصص : إبراهيم الحسينى

المجلس الأعلى للثقافة

المجلس الأعلى للثقافة

اسم الكتاب : قصص ليل

اسم المؤلف : إبراهيم الحسينى

الطبعة : الأولى - القاهرة ٢٠٠٢م .

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo

Tel. : 7352396 **Fax :** 7358084.



قصص
ليـل

إبراهيم الحسينى



قصص ليل

إبراهيم الحسيني

إلى النهار الذى غاب

فهـــرس

جــدى

جدتى لأبى فاطمة ماتت، وهى تلد عمى فهيم الذى يكبرنى بأربعين عامًا، فظل جدى لأبى شناعين وصيفًا، يجوب قريتنا «دمهوج» كل يوم، من شقشقة النهار إلى ما بعد آذان العشاء بساعات، من ترعة الخضراوية إلى مقام الشيخ درويش وجامع البسيونى وطاحونة أبو الحسين، وهو يحمل عمى فهيم فى خرقة بالية على ذراعيه حينًا وكتفيه حينًا، يلتقط الأخبار من البلدة بطولها وعرضها، عن المرأة التى ولدت، والمرأة التى جاءها الطمث، والمرأة التى فارقتها «العادة» وحبلت، وفى أى الأيام والشهور سوف تلد، ويتوجه إلى هذه الدار أو تلك، يطرق الباب برفق، وهو يقدم رجلاً ويؤخر رجلاً، يسأل المرأة التى ترضع:

- والنبى يا بنتي، ينوبك ثواب، قطه لفهيم، يقعد لك فى ولدك.

وينتقل من هذه الدار إلى تلك، وهكذا صار لعمى فهيم فى كل دار أمًا وأخًا أو أختًا.

واليوم.. يوم الفطام، دهنت جدتى «ديوان» أخت جدى لأبى ثديها بالمر والصبار، أخذت عمى فهيم فى حجرها، تهدهده لبرهة، ثم ألقمته حلمة ثديها.

حينذاك تأمل جدى لأبى عمى فهيم يبكى ويصرخ ويرفس بقدميه فى حجر جدتى «ديوان» تنهد تنهيدة عميقة، ومات.

ليـــل

وترفرف الراية السوداء.

ضباب كثيف، وهواء مندى، الليل جبل، القاهرة نائمة، نوافذ تبدو فى العتمة كفتحات جحور، حراس الأبراج يتبادلون صياحًا:

- خمسة تمام.

- ستة تمام.

كلبان بوليسيان أسودان يربضان أمام بوابة حديدية ضخمة، يقف خلفهما، جنديان، يمسكان سلسلتين، تنتهيان عند طوقين من جلد سميك عند رقبتى الكلبين.

رجل وحيد فى مقهاه، يغسل الكبايات والفناجين، يغير ماء الشيش. بخار ماء يتسرب من حواف غطاء براد ضخم، يمتلئ بمياه تسخن، تحت نار «بوتاجاز» أعور.

أكشاك وحوانيت مغلقة. شيخ معمم ينحدر صوب مسجد الرفاعى، يفتح بابًا عتيقًا بهتت زخارفه، يخلع حذاءه، يرفعه تحت إبطه ويلج، تبتلعه ظلمة كثيفة، يتنحنح، يسعل، ويسمع صدى سعاله، يضئ نورًا شاحبًا، ثم يتوجه إلى باب خلفى ضيق، يصعد بتؤدة سلمًا حلزونيًا، يقوده إلى المئذنة. سور عالى، من حجارة جبلية، يمتد فوقه أسلاك شائكة وزجاج مهشم يومض. فئران وعرس، قطط وسحالى. بغل يفترش الأرض على إحدى جانبيه، يلوى عنقه للخلف، حوله بقايا برسيم وتبن وفول «مدشوش». صبيان، أسمالهما بالية،

أرجلهما متسخة، يتكوران متداخلين، يغطان فى «خرج» معلق أسفل كارو متربة، يتنفسان بهدوء وعمق، وأذرعهما وسادتان. امرأة وحيدة تجلس «مفرشحة» على رصيف «درب سعادة»، ذات سمنة خفيفة، سكرانة منهكة، تسند مؤخرة رأسها على جدار بيت مهجور ومتداع، ترتفع «جيبتها» عن فخذين متهدلين مكدومين. لم تتخلف ليلة منذ سنوات، لا يعلم أحد مداها، لا يعوقها مرض أو سفر، برد أو مطر، بعد الثالثة وقبل الفجر تأتى، يشم النزلاء خلف الأسوار، تتسلل إليهم رائحتها، تصلهم حشرجة أنفاسها، يحسون ملمس خطوها، ويتناوب اليقظة منهم فى الدور الثالث القفز على البطاطين إلى النوافذ المسيخة يقرفصون كالقرود، يتأملون الفخذين وفرجة الثديين بشوق واشتهاء، يلقون إليها أرقام تليفونات ورسائل تلغرافية، تجرى، تلاحق الرسائل، يمينًا وشمالاً، تنحنى لتلتقطها، وتدسها تحت «السوتيان»، يداهمها حراس الأسوار، يحيطونها، ويخطف أحدهم حقيبتها:

– عملتى بكام الليلة؟

ثم يخرج محتوياتها: مناديل ورقية، سجائر أجنبية، مراية، ولاعة، مزيل للعرق، مكياجات حمراء، صفراء، بنية، بنفسجية، برتقالية، وصورة فوتوغرافية يتجاهلونها.

– زباينك دايمًا مأشفرين.

يقتسمون ما لم تخفه من جنيهاتها، وهم يتحرشون بها من أمام ومن خلف، هازئين، يمدون أياديهم إلى نهديها

ومؤخرتها وبين فخذيها، تدفعهم بعصبية:

- تعبانة يا ولاد الكلب.

وتتهالك على الرصيف، تشعل سيجارة من سيجارة.

وعند أولِ ضوء، تتساند على بعضها، وتنهض، تنفض التراب عن مؤخرتها، تضع كفيها مفتوحين حول فمها، فيخرج الزفير مدخنًا، وبكل ما لها من قوة وعزم، تنادى:

يا عزيز.. يا عزيز...

لا أحد يجيب.

تجرجر قدميها المتورمتين بتثاقل وإهمال، وهى تتلفت وراءها:

- يمكن.

وتفض الرسائل المطوية، رسالة تلو الأخرى.

«جلال مترحل وادى النطرون. سامى رايح طنطا. رفعت راجع الحضرة. جرجس فى مديرية التحرير. عاطف ودوه المرج وشاكر فى طرة».

وما تزال تنفض التراب عن مؤخرتها. والرجل الوحيد فى مقهاه، يرص الكراسى، يمسح المناضد، وصمت مطبق يخدشه عواء الكلاب:

عووو... عووو...

العصفــور

خرجوا جميعًا وبقيت وحدى، وعلى غير العادة رمقنى الحارس بمودة:

- تصبح على خير.

وضرب المفتاح فى الباب، تك .. تك، أغلق الزنزانة والحق، الحق، أقول لكم:

كنت أتطلع إلى الورقة فى يد الحارس، وهو ينادى اسمًا، اسمًا، إلى أن انتهى، تلفت حولى، وكدت أنفجر فى البكاء، لكنى تماسكت، فهؤلاء أحبة، وأنت رجل.

تمددت على فراشى، فى بلادة وشجن، كتلة شمعية باردة مخنوقة بالبكاء.

ما أقسى هذه اللحظة.. لحظة انعدام اليقين، بين الفرحة بانعتاق الآخرين، وحزن الأسر والفراق، شددت البطانية على وجهى، لكنى ــ صدقونى ــ لم أنم، ولم تغمض عيناى، ولم تنتبنى ولو غفوة، كنت فى كامل الإدراك وتمام اليقظة، ضعف، انكسار، وهم، خيال، حقيقة، قوة، بهجة، تمزق، انفجار، انشطار، لم أدر إلا وأنا مازلت ممددًا على فراشى، واقفًا أدور فى الزنزانة، أجمع ملابسى والمنشفة وفرشاة ومعجون الأسنان وماكينة الحلاقة، فى الحقيبة، التى نفضت، أو نفض هو، عنها الغبار، ورأيتنى أخرج، والأبواب لا تزال مغلقة من باب الزنزانة إلى العنبر، ومن بوابة العنبر إلى الفناء الكبير، ومن بوابة الفناء الكبير إلى الإدارة، ومن بوابة الإدارة إلى

السور الخارجى، ومن بوابة السور الخارجى إلى الشارع.

اندفع الهواء إلى صدرى، تنفست بعمق.

«الله.. الهوا جميل».

ورأيتنى، من هنا، بمفردى أسير، والطريق يمتد، أبريل والخضرة ورائحة الورد والرياحين وحفيف أوراق الشجر الكثيف وسمرة الإسفلت وومضة الليل وبقع الضوء البعيد.

«ما أحلاك هذه الأيام حبيبتى»

إلى أن وصلت مفترق الطرق، ظلت تتقاسمنى، أو تتقاسمه، الحيرة: فى أى طريق أمشى؟ حتى سمعت قطارًا يدخل محطة، وتذكرت عندما كان صوت عجلاته الحديدية يأتينا خفيضًا فى الزنزانة، يثير الرغبات والأشواق، يوقظ الأحلام، ويلهب الذكريات، جريت بكل ما أوتيت من قوة وعزم، وبالكاد تمكنت من اللحاق بالقطار، يتحرك ببطء، ألقيت الحقيبة فى العربة قبل الأخيرة، وقفزت وراءها.

وكنت على فراشى ـ هنا ـ بالزنزانة ألهث.

«على بلد المحبوب ودينى

طال شوقى

والبعد كاوينى»

عد يا شهاب.

انهض أنت يا شهاب.

إنه الوهم، ولا داع لخداع النفس يا شهاب.
هذا طريق الموت أو الجنون يا شهاب.
تمتع أنت بالعقل والحكمة والحياة يا شهاب.
أنا الأصل يا شهاب.
أنت خائر وبليد يا شهاب.
سأخسف بك الأرض يا شهاب.

صياح وضجيج وصهيل وصليل وقعقعة ونيران ولهاث وحجارة وحصى ورمال ساخنة وأرض تنشق: لأغور، وأغور، فأرانى، هناك، فى القطار، يشق الهواء، ويندفع: جسد هنا، وجسد هناك، المعادى، روح هنا، روح هناك، مارى جرجس، نار هنا، ونار هناك، الملك الصالح، نفق هنا ونفق هناك، السيدة زينب، مشدود لخيول هنا، وخيول هناك.

يا الله، من أنا؟ وأين موقع قدمى الآن بالتحديد؟

فى ميدان التحرير، والساعة تدق العاشرة، كل الشوارع الآن لك فامض كيفما تشاء.

«بهتيم زهرة المدائن»

سيقان وأفخاذ وأرداف وخصور ونهود وعيون وخدود وشفاه وشعور طويلة قصيرة، مخنوقة ومرسلة، كل النساء الآن لك، متع بصرك، واملأ جفنيك.

«فاطمة ما أجملك حبيبتى، عندما تأخذينى فى صدرك، وتفتحين بوابتك السحرية» وها هو «أتوبيس» ٩٣٥ يقبل،

أراه من هنا يدخل المحطة، قلبى يرفرف ويكاد ينخلع من ضلوعي.

أنت مني، وأنا منك، تمهل قليلاً يا شهاب، الحرية أو الموت، اقفز يا شهاب، نط ولا تلتفت إليه، فاطمة الآن تتساءل عن سر خروجهم وبقائى، القلق يأكل لحمها، وينهش عظامها، طال الزمان والغياب، قد تنهار وتصاب بصدمة عصبية.

أسرع يا سائق لقد أخذونى منها ليلة زفافنا، الشوارع أمامك خاوية، هات آخر ما عندك، أنا قادم حبيبتى، لحظات وأصير بين يديك، ضمينى ضمينى، رمسيس، كوبرى غمرة، شادر السمك، الوايلى، الأميرية، مسطرد، حفر، مطبات، آه بهتيم زهرة المدائن حقاً.

أختنق، يا شهاب عد.

البيوت القديمة، الشوارع المتربة الحوارى الضيقة الدنيا تدور بى، يا شهاب عد.

حكيم البقال، عبد اللاه الفكهانى، طه الحلوانى، الصهاريج القديمة، الصهاريج الجديدة، لسانى يتدلى، يا شهاب عد.

صلاح الطعمجى، حمدى الكبابجى، عبد المنعم القماش، إمام الجزمجى، سيد العصيرى. أقبل الأرض تحت قدميك، يا شهاب عد.

شعراوى اللبان، كشك سعيد الأعرج، مقهى الغنام،

مخابز الدمهوجى، عمال إسكو، ها هو بيتنا، هواء .. هـــواء، صعدت درجات السلم، وبآخر قطرة من دمى ضغطت الجـــرس، ولمحت طيف فاطمة خلف زجاج الباب الذى انفـــتح، وغامـــت الدنيا. فى الصباح وجد الحارس عصفورًا ممزقًا عند أســـياخ النافذة.

الشـــــاهـد

وأعدت غرفة الإعدام.

راجع المأمور مع «العشماوى»: متانة الحبال المجدولة، قتامة العصابة السوداء.

حوائط جرانيتية ضخمة مبطنة بجلود سميكة سوداء، مساحة خشبية تتوسط أرض الغرفة مغطاة بسجادة بالية، ترس كبير أسود يتصل بذراع حديدية سوداء، يجذبها «العشماوى» بغتة، بقوة: فتنشق الأرض عن هوة سحيقة، ليصعد ملك الموت.

يوم رآها، تطارد السيارات فى الإشارات، تلقى الزهور لركابها من نوافذها، لم يكن على يقين.

«هى ليست هى»

طار سائق «التاكسى» الذى يستقله، تلفت وراءه ليهبط، كانت قد اختفت لكنه تذكر، وهى تتطلع من الشرفة، فجر أيامهما معًا:

لن يكون مصيرى مثل هذه المرأة.

كانت تشعر برباط وثيق ـ تكرهه ـ بينها وبين هذه المرأة التى تقيم، ليلاً ونهارًا، على الرصيف تسب المارة والحكام، وتتسول ما يقضى حاجتها:

- اطرد هذه المرأة من هنا.

اللون السائد هنا أزرق، الجدران زرقاء، النوافذ زرقاء،

الأزياء زرقاء، الأسقف، حتى النهار مشوبًا بزرقة خفيفة، النادر أصفر زى الحراس، لكنك تستطيع تمييز الأحمر فى عنبر الإعدام.

الساعة الآن الرابعة إلا ربع.

«ربما يكون هو، وربما يكون غيره».

باق من الزمن ربع ساعة.

كل واحد من هؤلاء يعرف مصيره.

ومن لا يعرف مصيره؟

كيف يعيش الإنسان على حافة الموت؟

كلنا على نفس الجرف.

كان الفضول يستثيره يؤرق نومه، يملك عليه وجدانه، يعذبه، ويقود خطاه. وكان محظورًا على السجناء الاقتراب من الذين يلوحون هناك، شاحبى الوجوه، واجمين.

ذات مرة حام حول أسلاك العنبر، عله يخاطب أحدهم، ثم تجاسر وسأل أحد الحراس:

- نفسى أعرف بما يحسون؟ كيف يفكرون؟

تطلع الحارس إليه بدهشة:

- كلنا أموات يا أستاذ، ابعد.

لم ندرك خطورة ما يجرى، لم ننتبه إلى ما وراء عبارته وقتها:

- دوستويفسكى خاض التجربة، لهذا أنتج أدبًا عظيمًا.

هاجس ما كان يطارده:

- المرأة التى أحبتنى، المرأة التى أحببت، لن أراها إلا هنا.

كانت كالوردة فى الفجر تتفتح، تستقبل نداى وهمسى وجنونى. الورد عمره قصير، والشمس تجفف الندى، ولم يبق لنا إلا..

- اسمى مدبولى، نادونى مدبولى.

كنا ثلاثة، شاعر وقاص ورسام، بقايا انتفاضة يناير، نسكن الزنزانة المقابلة لغرفة الشنق، شقت لنا مجرى إلى "العشماوى" سيجارة، كباية شاى، فنجان قهوة، بقايا وجبة.

- تكره عشماوى يا حضرة الصول؟

- أكل عيش، مهنة.

- الشنق يا حضرة الصول؟!

- أنا سياف الملك، لو الملك قال: أشنق ابنك، أشنقه!

- من غير ما تفكر؟

- أنا أحن واحد على المشنوقين.

- فى الشنق حنيّة!

- حسن الصنعة، وقوع البلا ولا انتظاره.

كان أقربنا إليه، وأبعدنا عنه، لم نلحظ اهتمامه الزائد عن الحد، وهو يوغل فى التجربة ، يخوض فى تفاصيلها وزواياها:

- الموت تجربة نادرة، الميت الحى، أو الحى الميت.

- هذه الحضارة شواهد قبور.

- الحياة قصيدة عدمية.

طلب الكتب فى الزيارات، جمع المجلات وقصاصات الأخبار، يستعيد بين الحين والآخر، مشهد الخازوق فى جسر على نهر درينا.

- هذا هو تاريخنا الجميل، تاريخنا الحقيقى، خوزقة ورجم وصلب، رمى بالرصاص وشنق وصعق بالكهرباء، من العصر البدائى إلى عصر التكنولوجيا.

يومًا بعد يوم، جذبنا إلى عالمه، دفعنا ندور فى دائرته، يلح على إنسان دوستويفسكى وكلبه فى «مذلون مهانون» وطفل جوركى الذى يهوى الصراصير، مومس سارتر الفاضلة.

ورطنا معه، وافقناه على شططه وجنونه، وضعناه بأيادينا على حافة المشنقة:

- سأرسل لكم كل ما أعرفه من هناك.

قاومناه وأصر.

دب، دب، دب، الساعة الآن الرابعة، أقدام الجنود تقترب.

باق من الزمن ثوان.

- خلّ الليلة تعدى على خير يا فؤاد.

- خش زنزانتك منك له.

- بكره فى إعدام يا عزيز.

صمت وليل ثقيل، ترقب وانتظار، عيون جامدة، أنفاس لاهثة، وكنا نتناوب النظر من فرجة بالباب: ثمانية عشر رجلاً، منذ قدومنا إلى هذه المقبرة، وست عشرة امرأة، كنا نسمع زحف أقدامهن، وهن منهارات، مجرورات من تحت إبطهن، فالأنثى أية أنثى لها رائحة نفاذة هنا:

- النسوان أحلى ما فى الدنيا.

- هن الدنيا.

علقن على المشنقة: امرأة وراء امرأة ورجل وراء رجل.

وفى الإعدام الأخير، تهالك، خارت قواه وارتعش، أسند رأسه بين كفيه، وخرجت من فمه حشرجة واهنة:

- هى.

- لن يكون مصيرى مثل هذه المرأة.

وكان يتخفف على صدرها من آلامه وملاحقاته وجفاف أيامه.

- حبى، نسيم الربيع، قادنى إلى الصحراء.

وكانت تتعرى، بين يديه، من أصباغها وماضيها، بلا استحياء.

- أبى ميكانيكى، عامل فى ورشة، والرجال لا يريدون منى غير فرجى ومؤخرتى وأثدائى.

وكنا نجوب البلاد سواحلها وصحاريها، أدخل فيها، وتدخل فى: شهب ونيازك، ريح تعصف، موج يهدر، ونهر يفيض، هى بعض منى، وأنا بعض منها.

ونفذ، اختراق الحصار.

- سيعدمونه يا محمود.

- وما شأنى؟

- حل محلك.

- قايضنى بما يريد، وقايضته بما يريد.

وكان قد جاء به من دورة المياه خلسة، وقال:

- محمود محكوم عليه بالإعدام، سوف نبدل مواقعنا.

- هذا جنون.

- بضعة أيام ونعود.

دب، دب، دب، أقدام الجند تقترب، فرقة الإعدام تتأهب، وملك الموت، يزحف كالحية، يدب كالنمر، يزأر كالريح، وينقض كالنسور(١).

---

(١) حافظ الشيرازى

الغـــائب

- الحسينى غرق

قال أخى ممدوح، كررها مرة ثانية، ومضى.

تلقيت الخبر ببرود شديد، أشعلت سيجارة، أطلقت نفثة الدخان، وذهبت إلى دورة المياه، تخلصت من أوساخى، اغتسلت وغيرت ملابسى دون معاونة من أحد، فالجميع هرولوا إلى هناك.

هجرت عائلتنا بيوتها، الكبار والصغار، رجالًا كانوا أو نساء، إلى الشط، نرقب المياه، وتتابع الموج، موجة وراء موجة، وأنا بداخلى يقين: أن الحسينى لم يغرق، وسوف يخرج، بين لحظة وأخرى، من مخبئه، وهو يضع كفيه على وسطه، ويطلق ضحكته المجلجلة، إلى أن أصيبت أختى آمال، بأول نوبة صرع فى حياتها، حين لمحت، قمة رأسه، للحظة طافية على الماء، واختفت.

ولما جاء الغواصون، قرب حلول المغرب، أشارت لهم بسبابتها وقالت: هنا.

فألقوا بأنفسهم تحت الماء، ساعات وساعات، وهم يستبدلون أنابيب الهواء.

وعائلتنا تقف على أظافر أقدامها، ترمق المياه بغيظ وكراهية، أسفل شجر الطريق، الذى طالما رأى جولاتنا، فى ليالى الصيف المقمرة، يأتى بشبكة الصيد، وأجىء ببندقية

الصيد، له البلطى والبياض، ولى اليمام والعصافير، كان يحب البحر، وأحب الفضا.

وعندما تغيب بيوت مسطرد وبهتيم خلف ظهورنا، ننحدر من طريق مصر الإسماعيلية الزراعى إلى شط «الحلوة» حيث الحشائش المنداة ونقنقة الضفادع وانسياب المياه.

يخلع الحسينى ملابسه، يكومها تحت حجر كبير، ويخرج شبكة الصيد من القفة، يطوحها ويرمى بصره، يلاحقها حيث يجرفها التيار، يجرى بموازتها على الشط، وهو يمسك بطرفها فى قبضته إلى أن تستقر فى القاع، ينتظر عليها بعض الوقت، ثم يسحبها محملة بالقواقع والأسماك تتلوى وتتقافز.

ولما يشقشق النهار، يلقى بجسده فى «الحلوة» ويغطس ثم يطل برأسه هناك، بعيدًا عن الشط، بين الموج، وتحت ضباب الفجر، يلوح لنا بيديه، ويصيح بأسمائنا:

- يا عيسى، يا عنتر، يا كمال، يا رجب.

- ارجع يا حسينى.

- الجدع منكم يأتى هنا.

ويعوم فى مكانه، كالبط والكلاب والضفادع، يرشنا بالمياه، وينام على ظهره، يسبح مع التيار، ثم ينقلب على وجهه، يشق الموج بصدره، ويضرب الماء بذراعيه، ويظل يبتعد، وحجمه يصغر، إلى أن يختفى تمامًا عن أبصارنا.

وفجأة نراه فوق رءوسنا، مبللًا بالمـــاء، يحــوم حــول الحفرة، التى حفرناها، وبنينا بها بيتًا للنار، لنشوى الســمك، يجفف جسده بأشعة شمس الصباح، ونأكــل، حتـــى تمتلـــئ بطوننا، ونستلقى على العشب، يهز البندقية بجوارى ويقــول: اليمام والعصافير على الشجر، عليك الغدا.

ولما نزح الحسينى من دمهوج إلى بهتيم، فـــى الثالثـــة عشر من عمره، لبد بجوار الراديو، يومين متصــلين، يــدير المؤشر يمينًا ويسارًا، ثم قال: هات لى محمد طه.

قلت : لا يذيعون محمد طه إلا نادرًا.

حمل الراديو، بهدوء، إلى أعلى، وتركه، يســقط علــى الأرض مهشماً.

انفجرنا فى الضحك، ولم يكن أمام أمـــى إلا أن تصــفر وتخضر وتحمر وتضرب كفًا بكف، وترسل لأبى فـــى الفــرن وتقول:

- ليس له مكان بيننا، خذه الفرن.

قال أبى فى صرامة:

- له البيت والفرن وأولاد عمه.

وفى اليوم التالى شغله فى محلات البقالة مع أخى الكبير الذى شج رأسه بماسورة حديد، فسال دمه قنطارًا. طرد أبـــى أخى الكبير سنة متصلة وقال:

- سوف أفتح له دكانًا، وأزوجه آمال.

من ثمانية أيام، عندما عدت من أربعين أبى، أتانى الحسينى على دراجة، خلف كشك سعيد الأعرج، رمى نفسه فى حضنى وبكى، عرى جسده وقال:

- عمى مدكور يضربنى، هذه الأيام، كثيرًا.

لم أرد عليه.

قال:

- هو يعرف إننى معكم.

قلت:

- لماذا لم تحضر جنازة أبى؟

قال:

- يريد أن أترك الفرن لزوج ابنته.

قلت:

- كنت فى حاجة إليك هناك.

قال:

- ترك لكم كل شىء.

وانصرف.

قال زقلط الفران:

- حاولت أن أمنعه، كان متعبًا، ظل يعمل، بمفرده طوال الليل ونصف النهار، أمام الفرن، لكنه أصر، واندفع على غير عادته، يسبح ضد التيار وعبر للبر الثانى بسلام، أشار لنا بيده من هناك، ثم غاص بضعة أمتار، وعام مع التيار، قلنا: عاد إليه هدووءه.وفى منتصف «الحلوة» كان يرفع ذراعيه بصعوبة ويغطس، ثم يطفو ويغطس ويطرطش المياه ويصيح بأعلى صوته: إلحقنى يا زقلط، إلحقونى يا ناس. اعتقدنا أنه يمزح، إلى أن غاب تمامًا تحت الماء.

نفذت أنابيب الهواء، وطلع الغواصون من الماء، وما معهم إلا قطعة الملابس الوحيدة التى كان يرتديها، خلعوا جلودهم وحزموا حقائبهم وقال رئيسهم:

- الجثة جرفها التيار.

فانصرفنا.

اللعبـــــة

- قتلتها.. قتلتها.

عاريًا يصيح «السماك» من فوق سور البلكونة، وسكين كبير فى يده يقطر دمًا.

وقفت «بهتيم» على شعر رأسها، حين تردد الخبر.

- الزفر تزوج عزيزة.

وركضت على ألسنتها، إلى دكان «السماك»، تسأل أم «محمد» زوجته القديمة صحة الخبر، وزحفت «بهتيم» على عيونها، تتطلع إلى ما وراء الشرفة والنوافذ والجدران، وقد أطلقت أخيلتها، تعرى «عزيزة» والسماك غارق فى التقبيل والمضاجعة.

- الزفر صاد حورية البلد؟!

- هل تطيق رائحته؟

- جنية ومخاوية.

عندما عثر أهالى «بهتيم» على جثة «محمود الحداد» طافية فوق مياه المصرف ونفايات البشر، استقبلت «عزيزة» النبأ بهدوء وبرود شديدين، وقامت، ارتدت ثياب الحداد.

وقالت: خلف الوعد.

أطلقت الشرطة المخبرين وراءها، بضعة أيام، ثم جاءت بالكلب «هول» يهز ذيله، ويتشمم الرجال والنساء، الذين اصطفوا أمام مقهى «حسن سلامة» وفجأة توقف الكلب، وشب على «عزيزة» يجرها من ثيابها وهو ينبح.

وفى المحكمة، أشار وكيل النيابة بسبابته، وقال:

- لن تفلت هذه المرة من القصاص.

ردت «عزيزة» من داخل القفص: خـلّ الكلـب يحلـف اليمين يا حضرة القاضى.

هجر «السماك» البحر والشبكة والقارب، وأحالت زوجته القديمة محل السمك، إلى محل لبيع الفول والفلافل.

مر يوم، وراء يوم ، تسـعون يومًـا والنوافـذ مغلقـة والشرفة مغلقة، وباب الشقة لا يفتح، بـل يـوارب، ويتلقـى «السماك» من «أم محمد» الطعام والدخان والفاكهة وزجاجات البيرة وفص الأفيون، ويستدير، يدير مؤشر الراديـو، تغنـى كوكب الشرق، ويقبل على «عزيزة» التـى تطـول وتقصـر وتسمن وتنحف وتخشن وتـنعم وتتلـون سـمراء وبيضـاء وشقراء، إلى أن هلّ عصر اليوم الواحد والتسـعين، بجلبـاب أبيض نظيف، وذقن ناعمة وشعر حليـق، يتجشـأ ويتمطـى ويسير بخطوات ثابتة تجاه الدكان المواجهة للبيت.

خرجت «أم محمد» من رواء طاسة الطعمية.

وقالت: آن الأوان تزور بيتنا يا زفر.

هوى «السماك» بكفه على وجهها.

وقال: هكذا حالك، إن أردت أبق، وإن أردت خذى أولادك وارحلى، فأرض الله واسعة.

لم يكن يمر أسبوع إلا وتستلقى «بهتيم» على قفاها من الضحك، حين ترمى «السماك» بأى شئ يقع فى يدها: شبشب، حذاء، وابور جاز، وهى تطارده وتسب وتلعن حظها الأسـود، وهو يجرى أمامها، ويختبىء كفأر مذعور.

- قتلتها.. قتلتها.

عاريًا لا يزال «السماك» يصيح من فوق سور البلكونة، وسكين كبير فى يده، يقطر دمًا، والنهار يشقشـق، «بهتـيم» تتجمع، الشيوخ والشباب، الرجال والنساء، الصبيان والبنـات، يتدافعون بالدراجات والسيارات والعربات الكارو وعلى الأقدام.

- هو يقدر عليها؟
- كان غيره أشطر.
- الولية لحست مخه.
- كل من تزوجوها قتلوا.
- يجعل سره فى أضعف خلقه.

هنا لا يعلم أحد كم مـرة تزوجـت؟ ومـن أيـن أتـت «عزيزة»؟ صعيدية أم بحراوية؟ من القرى أم من بنات البندر، ساحلية أو صحراوية؟ وعبد الواحد نفسه أكبر شيوخ «بهتيم» لا يعرف لها أبًا ولا أمًا لكنه يحلف، حين تأتيه نوبة اليقظـة، برب السماء والعرش.

«لما فتحت عينى على الدنيا، كانت «عزيزة» شابة، كما هى الآن تقيم «بهتيم» وتقعدها بحلاوتها التى تزيد يومًا بعـد

يوم، وجدى الكبير قال لى: إن أباه أحد ضحاياها، وصمت».

منذ بضعة شهور، والدنيا فى عز الليل، اندفع «حسن سلامة» زوجها الأخيرـ الذى كان يضرب الحائط برأسه ـ فينقبها من باب بيته، والنار تشتعل فى جسده، يجرى ويتلوى ويقفز، ويصرخ ويتمرغ فى التراب.

وفى الصباح استيقظت «عزيزة» من النوم براحتها، ارتدت ثياب الحداد.

وقالت:

- لكل أجل كتاب.

- قتلتها.. قتلتها.

عاريًا لا يزال «السماك» يصيح من فوق سور البلكونة، وسكين كبير فى يده، يقطر دمًا، و«بهتيم» لا تزال فى الضوء الرمادى تتجمع، حتى المرضى والعميان والعرجان والمشلولون والبلهاء ومقطوعو الأطراف، وعبد الواحد نفسه كان قادمًا إلى هنا، محمولاً على كرسيه.

- عزيزة ماتت؟

- قتلت يا حاج.

- يمهل ولا يمهل.

- من قتل يقتل.

– على يد الزفر.

– أقل عيل فى «بهتيم» كان يضربه على قفاه.

– «السماك» طيب، وليس ضعيفًا.

على الشط، فى ساعة فجرية، والدنيا برد، خلع «السماك» جلبابه، وظل بالسروال، والصديرى المفتوح الصدر، وقال لنفسه: رزق العباد على الخلاق، ثم ركب القارب، وقبض على المجدافين، يشق طريقه بين الموج، إلى أن غاب بعيدًا عن الشط، سمع نداءً خافتًا ، لم يستطع تحديد مصدره، نهض، يتلفت حواليه، وطوح الشبكة بكل عزمه.

من عند الأشجار والنخيل جاءت؟ من الأعالى فى السماوات هبطت؟ من قاع البحر واللؤلؤ والمرجان صعدت؟ لايدرى «السماك» إلا أن «عزيزة» ترقص الآن فوق الماء عارية، تتمايل مع الموجات بدرًا مضيئًا، وهى قادمة إليه، تفك ضفائرها، التى غطت البحر، وسارت به من بحر لبحر، ومن سماء لسماء ومن أرض لأرض.

ظهر ذلك اليوم، عاد «السماك» رأسًا إلى بيت «عزيزة»، وألقى بصيده، البورى والبلطى والبياض، تحت أقدامها.

– أنا عذراء لم يمسسنى بشر.

– هذه هى الجنة.

– لكنى حامل وعليك أن تفسح الطريق للقادم.

- لن أخلف ليلة.

- وعد الحر دين عليه.

- رقبتى سدادة.

- قتلتها.. قتلتها.

وسقط «السماك» من فوق سور البلكونة، فأطلت «عزيزة» من النافذة، ترمق القادم هناك.

فالــــس

تحليل دم، تحليل بول، تحليل براز، وظائف كبد، وظائف كلى، رائحة اليود، جدران بيضاء، أسـرة بيضـاء، ملابـس بيضاء، ممرضات، حكيمات، أطباء، أشعة بيضـاء وسـوداء، أشعة بالصبغة، أشـعة مقطعيـة، حقـن، أقـراص، مـراهم، مساحيق، مطهرات.

فجأة أتاه بنعومة ورقة كخيوط العنكبوت، تسـلل إليـه حاصره، تمكن منه، تجسد تحت جلـده، يتغـذى مـن دمائـه وأحشائه، لقد رآه، شم رائحته، يحس دبيبه فى أوصاله، ليس مخيفًا كما كان يظن، هو أدنى إليـه مـن ملامحـه وأنفاسـه وأوردته، يسكن ــ هنا ــ فى القلب، يطل من العينين: وداعـة وسكونًا ورضا، سيلازمه فى صحوه ونومه وقيامه وقعوده، لن يفارقه مهما راح أو جاء، سيأخذه عنوة، فى رحلة غامضة بلا عودة ، ليس له اختيار، هو المصـير ، عليـك مـن الآن أن تتأهب، ستغادر وفاء، نجيب، سميرة من يكون لهم من بعدى؟ من يمنع عنهم ذل اليتم وذل الحاجة؟ وفاء بمفردها هل تقوى وتمكنهما من الشموخ والاعتداد بالنفس؟ ستحرم مـن لقـاء نجيب بعد عودته من المدرسة، معفرًا، متربًا يلقى الحقيبة من كتفه، يشب على أطراف قدميه، ليقبلك، ومن ثأثـأة سـميرة، وركوبها ظهرك كالجمل، ومن وفاء تـدخلك فـى أحشـائها، سترحل، إلى أين؟

لا مجيب.

بين الشهيق والشهيق يأتى، بين الهمسة والهمسة يأتى،

بين النظرة والنظرة يأتى، يزحف كالليل ينهض كالطود، يجثم كالجبل، ينقض كالنسور، عمى فهيم لم يكمل نكتة، كان يلقيها على مسامعنا، فى أمسية صيفية، شخر شخرة كبيرة ومات، سرطان فى الكبد، هكذا قال الطبيب، ولا مفر، كن شجاعًا ونبيلاً، لا تبك يا زاهر، اغتسل من عشق الدنيا، لا تئن، لا تضجر، لا تتمدد هكذا، تتوجع اذهب إليه، كن شفافًا كضوء الضحى، رقيقًا كوردة فى الصباح، أملك بيدك الرحيل، كن نسمة، سحابة، هو قادم لا محالة، ماكر، مخادع، قاس، غليظ القلب، لن تجدى هذه الأشعة والتحاليل، لن تجدى تلك الأدوية والعقاقير، وفر دوائك يا طبيب، جدى لأمى أصابه فى المثانة، فجز الأطباء خصيتيه، وظل صراخه بضعة أيام يهز قلوب ألد أعدائه، وأبى تمكن من رئتيه، قوسه، قرفصه، نحل بدنه، ثم مات، أما خالتى أنصاف، قطعوا بزها الأيمن مرة، قطعوا بزها الأيسر مرة، بتروا ذراعها اليسرى مرة، وساقها اليمنى مرة، استأصلوا رحمها مرة، فصارت، خلال بضعة شهور مسخًا مشوهاً، وماتت.

غراب أسود، بومة، حداية، هل تنتظر نفس المصير؟ هل تحتمل الشفقة فى عيون الآخرين؟ وحدك تموت، وحدك تمضى، سوف تتعفن وتدود ويأكلك التراب يا زاهر، أين الشمس والقمر والنجوم؟ أين النهار؟ أين الهواء؟ أين البشر؟ جثث، جماجم، هياكل عظمية، قبور وعدم، الموسيقى تغادر أوتارها، والألوان لوحاتها، والأسماك تهجر بحارها وأنهارها،

كل الزهور والورود والفراشات فارقتك، تقـدم يـــا زاهـر، لا تجبن، سر إليه مرفوع القامة والجبين، هى لحظة واحـدة، وينتهى كل شىء ستصرعه وتسخر منه، سوف تتخلص مـن سجن البدن وآلامه التى تزحف عليـك، أوصـيك يـا وفـاء، أوصيكم يا أهـل، يا أصحاب بنجيب وسميرة، أما بدنى فهـو لكم، احفظوه قطع غيار فى ثلاجة، أو احرقوه وانثروا رمـاده مع الهواء والريح، لكنى أرجوكم لا تقبروه.

فى الصباح: تحلق الأطباء، الممرضات، رجال الشـرطة فى الغرفة ٤٠٥، يتأملون جثة زاهر، معلقـة فـى مشـنقة، ولسانه يتدلى بطول الأرض.

فـرح

انحسر الضوء، وسقط الظل أمام القهوة ، امتد إلى أرجل الدكة المتهالكة التى يقعد فوقها المعلم عوض صاحب القهوة، التى ورثها عن أبيه المعلم زهران، الذى مات على أثر تناوله «نص قرش» من الحشيش البنى.

كان المعلم عوض يتأمل، من مكانه، الذى يطل على شارع الجامع الكبير: الكهارب والزينات والفراشين وهم يتحركون بهمة ونشاط، يصفون الكراسى الخيزران والمناضد والمفارش فى السرادق الواسع الكبير، ينفث دخان الشيشة الصدئة، من فمه وفتحتى أنفه، ويتعجب من أمر هذه الدنيا، التى ترفع من تشاء، وتخسف الأرض بمن تشاء.

حينذاك تعالت دقات الطبول ونفير الأبواق النحاسية والفرقة الموسيقية، بالأردية العسكرية الباهتة، تتقدم موكب الرجال والصبيان والبنات، تقترب من قهوة المعلم عوض الذى قال لنفسه:

«الليلة سوف تظل القهوة سهرانة حتى الصباح، تبيع البيرة مثلجة ومنعشة، وأحجار المعسل، والنار والجوز ستدور على معازيم الحاج دسوقى، الذين سيتوافدون بعد قليل فى سياراتهم المرسيدس والشيفروليه والبيجو، من سوق الخضار ووكالة البلح جماعات وجماعات، وربما يمكننا ربح الليلة من البيع والشراء وبقشيش المعلمين الكبار، استكمال مقدم أقساط التليفزيون الملون، الذى سأضعه هنا فى مدخل القهوة، قدام

الرايح والجاى، ليستعيد الزباين الذين طفشوا للقهاوى الجديدة، لكنى لن أجعل يدًا أخرى تمتد إليه وتعبث بأزراره غير يدى».

ونهض المعلم عوض، يطوح عصاته، هكذا، يمينًا ويسارًا من أمام ومن خلف، وهو يتقدم للرقص أمام طابور العربات الكارو، التى لفت" بهتيم" من أقصاها إلى أقصاها، محملة بعفش رمضان بن الحاج دسوقى، ليحى العريس وأهل العريس وجدعان الحى والحارة "بنص" جنيه قد الكف، وهو يقول لنفسه:

«والليلة سأخطف رجلى إلى دكان حمادة الجزار، أشترى كيلو لحم ضانى للعيال، وزينب تسلقه وتحمره «وتحبشه» بالفلفل الأسود والحبهان والمستكة، وتعمل جنبه شوية شوربة وحبة مكرونة بالزيت والصلصة، وستراقبنى من فوق سطح البيت، وأنا أخترق بنظراتى أفخاذ الغوازى ومؤخراتهن، ولحمهن العارى يتمايل، يتراقص، يهيج المشاعر والأجساد على أنغام الموسيقى وضرب الصاجات وقرع الكئوس وصيحات المعازيم، فتجرى تستحم، تنتف ما بين فخذيها وتحت إبطيها، تحك كعوبها بالحجر، وتتزين بالكحل والبودرة وأحمر الشفايف.

وطوح المعلم عوض مرة أخرى، عصاته ودار ثم دار، وهو يقفز بجلبابه البلدى الذى يمتلئ بالهواء، ويقترب من الفرقة الموسيقية، مشهرًا «نص» الجنيه الذى قد الكف بين أصابعه وزأر:

- ليلتنا فل يا جدعان.

وكان صوت رصاص البنادق والطبنجات يشق الهـواء، ويلعلع فى الفضاء، فاستقرت رصاصة طائشة فى رأس المعلم عوض.

غــروب

من نافذة سيارته «الشيفروليه» لم المعلم خميس الدمهوجى، وهو يتحسس فخذيه وركبتيه، ميدان باب الشعرية فى عينيه: محلاته، مقاهيه، عماراته إعلاناته، إشارات مروره. عواميد إنارته، أرصفته، أشجاره، نواصيه، عشب حديقته المسورة بأسياخ حديدية، شريط الترماى الذى يخترقه، أتوبيساته، سياراته الأجرة والملاكى، جامع سيدى الشعرانى، رجاله نسوانه، فتياته، فتيانه، معلمينه، صبيانه.

- وصلنا يا معلم.

أكثر من نصف عمرك، قضيته هنا يا خميس، وقفت ياما على رجليك مع الخبازين تحت العامود، اشتغلت فى كل الأفران، بالليل والنهار: طولجيًا ، سحلجيًا، عجانًا، تلدنجيًا، فرانًا، وساعات تروح مع أصحاب المخابز بلطجيًا ـ ضربت وضربت ـ وجرحت وجرجت، نمت فى القهاوى والجناين، على أسطح البيوت مع العفاريت والأشباح فى القبور، بين أجولة الدقيق والفيران والعرس والصراصير، وتحت أقدام الفرانين، على حصير سيدى الطشطوشى، وسجاجيد سيدى الشعرانى، مدد يا حسين، بركاتك يا طاهرة، جريت ياما وراء الأتوبيسات، ونطيت من الشمال فى الترمايات، وفى عز البرد، كنت تفتح صدرك، تعريه للريح والمطر، وأنت تحمل أقفاص الخبز فوق رأسك، تميل بالدراجة هكذا، حتى تكاد تلامس الأرض من اليمين، وتميل هكذا، حتى تكاد تلامس الأرض من الشمال وتصفر وتغنى:

- يا عزيز عينى وأنا بدى أروح بلدى

وشفت النسوان عرايا، تلصصت عليهن فى الحمامات، السمينة والرفيعة، البضة و«المرهرطة» البيضاء والشقراء والسمراء، ونمت معهن فى الكرخانات.

فتح المعلم خميس باب السيارة الخلفى، حمل ساقيه من ثنتى ركبتيه، ألقاهما على الرصيف، وهو يزحف بمؤخرته، إلى أن تمكن من الاتكاء على حافة الباب، فوقف حتى هدأت أنفاسه، واستدار منحنيًا بجذعه، يجر عكازيه من قاع السيارة، ثم وضعهما ـ هكذا ـ تحت إبطيه، وتأمل جلبابه «الجوخ» بأكمامه العريضة، وحذاءه «الأجلاسيه»، وحملت إليه نسمة هواء، رائحة الكباب والكفتة والطرب والجوافة والعنب والبرقوق والمشمش والمانجو، تنهد بعمق ومضى ينقل عكازيه فى طريقه إلى مقهى الصنايعية، وعلى بعد خطوة منه رمضان السواق، والوقت ما بين المغرب والعشاء.

الحـــــدود

- الليل، الليل، هز يا ميمون.

- ....

- ارقص يا ميمون

- ....

- تحرك يا ميمون، اقفز.

- ....

- نوم العازب يا ميمون، هيا.

- مولاى، عليك أن تعيد رأسك، من حجر الخليفة أولاً.

- خاصمتك الدنيا، وفر ميمون يا مروان.

أطبق الصمت، وهجعت المدينة فى عز النهار.

ثم مضى، ووارب الباب.

وكان الطقس رديئًا، الغيوم رمادية، وفروع الشجر ـ خلف النوافذ ـ جافة وعارية، والخريف يلفظ أنفاسه الأخيرة.

وأغلق باب الحجرة وراءه.

الليل الطويل قادم، الجدران رطبة، والبرد فى الجسد حتى النخاع.

أشعل فحم المدفأة.

- الليل، الليل، هز يا ميمون.

وتشخلل الشخاليل، تلعب أصابع مروان بدربة ومهـارة، تضرب جلد الدف المشدود...

يخرج النغم...

ويتجمع فى حوارى المدينة الصبيان والبنات والرجـال والنساء.

- ارقص يا ميمون.

يرقص.

- اقفز يا ميمون.

يقفز. وسلام للبيه.

يعظم. وعجين الفلاحة يا ميمون.

يضرب الهواء بساقيه الأماميتين.

ونوم العازب يا ميمون.

يقرفص.

جمع مروان القادة والحراس فـى حجـرة الاجتماعـات الواسعة:

- أصدقونى القول، ألا زال رأسى فوق رقبتى؟

- مولاى، إن وجهك يضئ الأرض.

- وعيناك وسط رأسك.

فكتب مروان على لوحة من ماء.

«نحن لا زلنا نملك أدوات تحرير.....»

ونام فى تلك الليلة هادئًا مطمئنًا.

تسلق ميمون الأسوار والأشجار، تقلب على عشب أخضر، مشذب ورائحته طيبة، قفز هنا وهناك، يقطف ثمار الموز والبرقوق، أكلها، وصعد إلى شرفة القصر، وانتظر مروان إلى أن انتهى من امتطاء إحدى جواريه، ودخل عليه.

– أهلا ميمون، قرصك الجوع، فعدت.

– جئت أصدقك القول يا مولاى.

– القادة أكدوا لى كذبك وافتراءك.

– خدعوك يا مروان، وما عليك إلا أن تنظر فى عينى جاريتك .

وفى الفجر، أطاح السياف برقبتها، لأن عيونها تكذب.

طار الخنجر، يشق الهواء، أسرع من حمامه، ومرفوق رقبه مروان، ليستقر فى بطن أحد جنوده، فشهق، وجحظت عيناه، تحية لمولاه، الذى كلم نفسه:

«الحمد لله إننى نزعت رأسى عن جسدى، منذ زمن طويل وإلا أصابنى هذا الخنجر الملعون فى مقتل، ليأت ميمون، ويرى».

- ميمون، الخليفه يريدك، وأنت الآن فى قبضتى، أستطيع أن آمر، فتجوع، وتتعرى، بل وتموت أيضًا.

- لكنى لى أرقص هناك يا مروان.

- أنا مروان يا ميمون، لحم أكتافك من خيرى.

- نعم، كنت أرقص وألعب، وتجمع أنت النقود يا مولاى.

تأمل مروان أظافره التى طالت وتقوست، وشعره الذى تكاثف وغطى جسده، وقرأ بعناية شديدة الخطاب الأخير من الخليفة.

«نحن فى شوق، ولم نعد نحتمل، إلى رقص ميمون وألعابه التى شوقتنا إليها».

الناس أنكرونى، والذكريات هجرتنى، والأردية سقطت عن جسدى، القادة والحراس يديرون ظهورهم، ورعاياى يشيرون:

- عورتك يا مولاى.

ولف السلسلة حول رقبته.

صهل الحصان، وقفز عاليًا، دفع الباب بقدميه، ورمح.


سفر

جارى الذى غاب سنة وراء سنة، عاد الليلة فى سيارة «بيجو» فاخرة، فجاءت زوجته ـ التى كنت أقرأ لها خطاباته وأكتب له خطاباتها ـ تدق باب شقتنا، ترتدى الروب الأحمر ـ الذى طالما خلعته أمامى، فى غرفة نومها، عندما أتسلل إليها، فى أنصاف الليالى ـ تدعونا، نفض الحقائب والكراتين معهم، وكانت نظيفة، لامعة، وملونة.

رمقتها زوجتى بنظرة خبيثة، وأخرى ملؤها الحقد والغيرة.

ألقى جارى باكو سجاير «مارلبورو» على المنضدة، ثم جاء بكأسين وزجاجة ويسكى، وقعد على «الفوتيه»، يرتدى شورتًا وفانلة داخلية.

وقال: دخن ما شئت يا أستاذ مصطفى.

وذهبت زوجة جارى إلى مطبخها، تدندن:

«تك.. تك.. يا أم سليمان»

تك.. تك زوجك ولهان»

وأنا أراقب، بطرف عينى، والغيرة تنهشنى، جسدها الذى تفتح وتحرر يعزف نغمًا، استعيد عريه، لونه، زهوره، تضاريسه، أشتاق الآن إليه، أشتهيه، وأمقت جارى الذى عاد.

وعادت زوجة جارى بالمزة: الجبن الرومى والبيضاء والبسطرمة والزيتون الأسود والأخضر، وشرائح المانجو

والتفاح والكمثرى وحبات العنب والبرقوق والمشمش.

وقالت: لن ننس أفضالك يا أم محمود.

قالت زوجتى بغيظ: لننه أولاً ما جئنا من أجله.

وأخذنا نفرغ محتويات الحقائب والكراتين، أشياء صفراء، أشياء زرقاء، أشياء بيضاء، أشياء حمراء، أشياء خضراء، أشياء سوداء.

وتهالكنا على الكراسى متعبين. صب جارى كأسًا لى وكأسًا له، وقال: عندك فكرة عن أسعار الدولار والريال؟

قلت: قدرت تدبر لى عقد عمل هناك؟

خطفت زوجتى الكأس من قدامى، ألقته فى جوفها دفعة واحدة، وتبادلت وزوجة جارى نظرات غامضة، ثم انفجرتا معًا فى ضحكة طويلة عصبية.

قلت: عندى الصبح أشغال كثيرة.

قامت زوجة جارى، غابت دقائق فى غرفة نومها، وأتت بكيس فاكهة وقطعة قماش زرقاء وعقد عمل.

وقالت بمرارة: تروح وتيجى بالسلامة يا أستاذ مصطفى.

على سريرى دخلت زوجتى فى حضنى، لفت ذراعيها وساقيها حولى، ضغطت على، وانفجرت فى البكاء.

القـــوس

عند جامع البكرى الذى يقع على أطراف القريـــة، فـــى الوقت الذى بين المغرب والعشاء، كان الأولاد ـــ الصــبيان والبنات ـ يلعبون ألعاب الليل لا النهار، يثيرون التراب والغبار خلف أقدامهم، وهم يركضون هنا وهناك، يختبئون فرادى فـــى الغيطان ـ وسط كثافة الظلمة، ونقنقة الضــفادع، وهســيس المزارع ـ وخلف أسوار الدور الكبيرة، التى يقطنها كبار القوم وأسياد القرية.

نهضت «سعدية» من مرقدها، ذهبت إلى دورة الميــاه، تأملت جسدها الذى جف وتيبس، وكاد يتشقق، لمحــت طيــف «حمدان» الغائب فى بلاد الناس البعيدة، وكانت تشعر بــالبرد والقشعريرة.

قالت «سعدية» لنفسها:

- يا رب، يا واهب الأرزاق، رجع لى جوزى الغايب فى بلاد الناس البعيدة.

بالت، ثم اغتسلت، وعادت إلى مرقــدها مـــرة أخـــرى، وكانت لا تزال تشعر بالبرد والقشعريرة.

تسلل الولد «زكريا»، اقترب من البنت «عفــاف»، لـــف ذراعيه حول خصرها، خلف سور جنينة الحاج «متولى عبــد الحق»، همس فى أذنها بكلمات قليلة، انطلقا بعدها إلى كـــوخ مهجور، فى قراريط «حمدان بن عبد الــرحيم» التـــى بـــارت وتشققت.

شق ضوء السيارة ــ المحملة بالشنط والكراتين ــ جدار الظلمة السميك.

سمعت «سعدية»، وهى فى مرقــدها، طرقــات ســريعة ومتلاحقة، فنهضت، فتحت المزلاج، وهى تتثاءب، تأملت وجه الغريب الذى قال، خافضًا رأسه:

- لقد سقط حمدان تحت البلدوزر.

وقال :

- وكانت تلك حقائبه وأوراقه.

وناولها رزمة من الأوراق المالية، وغاب.

جلسة ليست عائلية

تقيأت زوجتى دمًا. قال الطبيب:

- قرحة فى المعدة.

قالت أخت زوجتى:

- لم تعتد بعد على الأكل الطيب والكثير.

قالت زوجتى:

- ما عندى طاقة على احتمال هذه الكمية من الدهون واللحوم والخضار والفاكهة.

قلت:

- لا تقرب الطعام إلا فى الليل، أحس أنها تخشاه أو تكرهه.

قالت زوجتى:

- أحس أنه ليس لى.

قالت أخت زوجتى:

- هذا بيت زوجك، وبيت زوجك بيتك.

قالت زوجتى:

- أحس أنى غريبة عنه.

قلت:

- حاولت معها، لكنها لا تستجيب ولا تفهم ذلك.

قالت أخت زوجتى:

- طول عمرها تهوى الفقر، بعيد عنك.

قالت أمى:

- هى لا تريد نسيان أصلها.

قالت أختى:

- دائمًا تكلمنى عن أيام كانت عاملة فى المصنع.

قالت زوجتى:

- كنا ننتظر أول كل شهر لنأكل اللحم.

قالت أخت زوجتى:

- نفدت بجلدك من كل هذا.

قالت زوجتى:

- كنا نجتمع، كأننا فى عرس، حولها فى السماء، لكننا نظل يومين مصابين بالإسهال.

قالت أخت زوجتى:

- صرنا نأكل اللحم، من الجمعية، هذه الأيام، مرتين كل شهر.

قالت أخت زوجتى:

- كيف حال أمى؟

قالت أخت زوجتى:

- بخير، لكن الأورام تنتقل فى جسمها.

قلت:

- حبيبتى

«قال الطبيب»

- لا تجعلى شيئًا يثير أعصابك.

قالت زوجتى:

- ماذا يقول الطبيب؟

قالت أخت زوجتى:

- لابد من بتر الثدى الآخر، هكذا يقول.

قلت:

- هى بخير، وغدًا سآتى لك بها.

قالت زوجتى:

- هل وافقت إدارة المصنع على نفقات العملية؟

قلت:

- كل شىء يتدبر، انتبهى أنت لصحتك.

قالت أمى:

- عليكم بمتابعة الأوراق.

قالت أخت زوجتى:

- أبى غارق فى الروم ليل نهار.

قالت زوجتى:

- ألا زال أخونا يذهب إلى الجامعة، ولا يبالى.

قالت أخت زوجتى:

- لقد تخرّج، واختار العمل هناك فى أقصى الصعيد، ولا نراه إلا قليلاً.

قلت:

- سوف أدير لك قرص الموسيقى.

قالت زوجتى:

- حبيبتى ألا يحزنك أن أطوح هذا الكوب من النافذة؟

قالت أخت زوجتى:

- حمقاء، وربما تكون مجنونة.

قلت:

- حبيبى، كل شئ هنا لك.

قالت أمى:

- إنه تحفة، اشتراه جدك، ليفتح شهيته للطعام.

قالت أختى:

- دعيه لى، أنا فى حاجة إليه.

قالت زوجتى:

- أريد تفتيته.

قالت أخت زوجتى:

- بنت كلب لا تستحق هذه العيشة.

قلت:

- سوف أدير لك موسيقى شوبان.

قالت زوجتى:

- هل تسأل عنى صديقاتى فى المصنع؟

قالت أخت زوجتى:

- أثناء فترات الراحة، تفهمين طبعًا، فى دورات المياه.

قالت أمى:

- شغل المصانع يجعل المرأة خشنة المظهر والملمس.

قالت زوجتى:

- هل يذكروننى بالخير؟

قالت أخت زوجتى:

- يحسدونك على ما أنت فيه

قالت زوجتى:

- أشعر بالبرد.

قالت أمى:

- كل النوافذ فى البيت مغلقة.

قالت زوجتى:

- حبيبى، لو سمحت، أدر لى موسيقى شوبان، وقبلنى قبل أن تمضى.

.... وانصرفت.

بيضة الصباح والمساء

عندما يدخل شعاع الشمس من النافذة، يغمــر الحجــرة ضوء النهار، يطن فى أذنى الولد سمير لغط وهمهمات وصياح الباعة فى الحارة، يتقلب فى فراشه بالطول والعرض، مستمتعًا بالدفء والخدر والسرير خال من أخته وأمــه وأبيــه، الــذين ينهضون مع آذان الفجر وتكبيرة الصلاة، ويكون الولد ســمير فى انتظار أمه، تأتى ويدها مبللة بالماء لتــدفع الغطــاء عــن وجهه، تهزه وتقبل جبينه، وتقول: قوم يا ســمير، الشــمس طلعت من بدرى.

يظل يئن يتلوى يراوغ يتملص، إلى أن يشعر بنبراتهــا، وقد فاض منها الكيل، تحتد وتقوى متوعدة ومنــذرة، يكــف والبكاء يخنقه، ويجثم على أنفاسه، يقاوم رغبته فــى النــوم والكسل، يستجمع قواه لمواجهة لسعة البرد ووخــز الهــواء، يشب بجذعه متعلقًا برقبتها، لتمنحه بعض الدفء، وابتســامة تزيل التجهم والصرامة وآثار الغضب علــى وجههــا يقبلهــا، ويتوسل إليها: «أن تدعه ينام اليوم.. واليوم فقط».

تداهمه السبورة والحصيرة وأحذيــة وشباشــب الأولاد وعصاة الشيخ مسعود، الذى يراه ــ كما يرى الجان والعفاريت فى حواديت أمه وحكاياتها إلى تملأه بالرعب والخــوف فــى أنصاف الليالى ــ بقرون وحوافر وأنياب حادة طويلة ومدببة.

تحمله بين ذراعيها، تسير به إلى الحوش الترابى تضع رأسه تحت حنفية المياه، وهو يرفس الهواء بقدميــه، ينشــج

ويصرخ ويضربها بيديه على صدرها.. يحاول التملص والانفلات من إحكام ذراعيها حول جسمه.

الولد سمير تظل البيضة ـ طوال أيام الأسبوع ـ تداعبه تراوده تأتى إليه فى الأحلام، على هيئة ثمار كثيفة تتدلى من فروع الشجر، أو تلال كبيرة لا تنضب، ويظل هو، فى خيالاته ينزع القشر عن البيضة، يتحسس الملمس الناعم من الداخل، يديرها، ويضغط عليها فى كفه، بينما لعابه يسيل، وريقه يجرى، يعد يحسب، السبت الأحد الاثنين بدءا من ليلة الجمعة إلى صباح الخميس، ينتظر مرور الأيام وتتابعها بفارغ الصبر، وطعم البيضة الحلو الشهى اللذيذ، يتعلق بذاكرته، يلازم شفتيه، ولا يفارق لسانه لهذا يكون الولد سمير، يوم الخميس بالذات، فى انتظار أمه، قلقًا متوجسًا، يتحرق شوقًا إلى سماع صوتها، وابتسامة مريرة، تشق شفتيها، عندما تقول:

– خليك نايم إنت يا خويا وأنا رايحة ألّم البيض.

ينتفض وينفض اللحاف بعيدًا عن جسمه، دون خوف من لسعة البرد ووخز الهواء ومياه الحنفية وخيزرانة الشيخ مسعود، يهبط السرير شاكيًا باكياً، بملابسه الداخلية المتسخة، يجرى، يصعد السلم بساقيه المقوستين محاذرًا، يستند بكفه الصغير على الجدار.

وعند عشة الفراخ: يكور جسده الصغير، وينفذ من الفتحة الضيقة ـ وقلبه يرجف ـ يبحث فى التراب والريش

والغبار، عن البيضة التى يخبئها فى عبه، إلى أن يغيب عند الجار وطلمبة المياه، فى الحارة، عن عيون أمه التى تودعه بقبلة على جبينه، والحزن يرقد فى قلبها بلادًا وبلادًا.

ذات ليلة، والقمر هلال، وكانوا يجلسون فى حوش الدار، قال: ....

فتلقى صفعة قوية من أمه، التى ظلت تبكى طول الليل، لكنه ظهيرة اليوم التالى، وجد بيضة مسلوقة ترقد بين طيات الرغيف، عندما هم يتناول طعام الغداء فى الكتاب.

وعندما تغيب شمس الخميس، وتسقط خلف النقطة القديمة، يعود الولد سمير، رغم كثافة الشوق، على قدميه من الكتّاب.

وفى الكتّاب ينسى الولد سمير، فى هذا اليوم بالذات، الدنيا وما عليها، يغيب تمامًا عن المكان، لا ير الشيخ أو السبورة أو الأولاد، يسرح ببصره، يركز بعقله وأفكاره ، هناك عند الجدار، حيث دفن البيضة بجواره فى الصباح، يتأمل شكلها، حجمها، ملمسها، مذاقها إلى أن يأذن لهم الشيخ بالانصراف، فينطلق مسرعاً، ويكون الشيخ قد ضربه، فى هذا اليوم بالذات، على كفيه أو إليته مرات ومرات.

وفى الحارة، يلقى نظرة على الجدار، ملؤها الحنين والرغبة واللذة ثم يقترب بحذر وتردد شديدين، يتلفت حواليه، يختلس البصر يمينًا ويسارًا، ويعبث بأصابع قدميه فى التراب.

لكن الولد سمير لم يكن بمقدوره أن يرى أمه، كل يـوم خميس، وهى تستبدل البيضة التى يدفنها فى التراب كى تنضج على نار الشمس الحامية.

ولم يكن بمقدوره ، أيضًا أن يرى أمـه، المختفيـة الآن وراء الباب، تتأمله بفرحة ومرارة، وهو ينبش فـى التـراب، باحثًا عن البيضة التى تكون قد نضجت واستوت، فيأخذها فى عبّه ـ هنا بجوار القلب ـ ويجرى يأكلها ويرمى قشرها بعيدًا عن أنظار الآخرين. ثم يرفع الترباس، ويتسلل داخلاً من فتحة الباب الموارب.

النخـــلة

حمل الحاج والى البندقية على كتفيه، ووارب الباب، ثم أطل برأسه، ينظر الطريق وقتامة الليل، تسلل على أطراف أصابعه، مضى فى الحوارى، والدنيا كحل، يتلصص حواليه، يرهف السمع إلى أنفاس وخلجات أهالى بهتيم، خلف جدران البيوت يلقى قطعًا من لحم حسن الحوفى، الذى مزق بدنه أشلاءً، للكلاب التى تنبح فى طريقه، إلى أن وصل كوبرى ترعة الشاويش، تلفت يمنة ويسرة، وتنهد، ثم أضاء بطارية وأطفأها ثلاث مرات.

دمدم موتور سيارة نصف نقل، كانت مخبأة فى دغل من الأشجار، محملة بالرجال الملثمين. قادهم الحاج والى مترجلين، بمحاذاة طريق القبور وسيدى الأعسر، إلى ترعة الخضراوية، وهنا كانت النخلة سامقة.

قال:

- لقد تخلصت من الحوفى بمفردى، وعليكم النخلة، خذوا ما طاب لكم من البلح والجريد، أما هى لا أريد أن أراها، فتتوها، وارموا كل قطعة بعيدة عن الأخرى.

ووقف على أياديهم، وهم يعملون بالمناشير الكبيرة والبلط، إلى أن اجتثوها.

فكلم نفسه: الحفاة، أولاد الكلب، الجياع، طالت قامتهم، وتطاولوا على أسياد البلد، ويساوون رءوسهم برءوسنا،

هاهى نخلتكم، جثة، تحت قدمى، ولن تعطيكم، بعد اليوم، المربى والعجوة والبلح، فقدتم زيت النخيل وأقفاص الخبز والخضار والفاكهة، ولن تجدوا ـ من الآن ـ المكانس لتنظيف بيوتكم.

ثم عاد إلى داره، ونام ملء جفونه.

شقشق النهار..

لمّت نعيمة الثوب الملون بين فخذيها، وهى لا زالت تحس بلل الحوفى بين وركيها، وقالت:

- هديت حيلى من اللف وراءك، من بيت لبيت، ومن حارة لحارة.

ومالت تصب مياه ساخنة مبخرة، من إبريق نحاسى، على جسد الحوفى، الذى يدعكه بالليفة والصابونة والحجر.

قالت:

- خذ بالك من نفسك، الريح اليوم عاصفة، والسماء ملبدة بالغيوم.

قال ورغاوى الصابون تغطى رأسه:

- ربما تكون معنا، وإن لم يكن فقد وضعت الليلة فيك بذرتى.

رمى حسن الحوفى بصره، عند قمة النخلة، يتأملها بدهشة وزهو وفرح، وهمس:

- «حتى الأمس لم تكن النخلة عالية هكذا»

ثم خلع جلبابه، وتعرى إلا من سرواله، وربط طرف السلب حول وسطه، وابتعد بضعة أمتار يتأمل النخلة مرة ثانية، وثمة عاصفة تهز الجريد وسبائط البلح، وتثير التراب والغبار، ولف السلب على زنده، نفخ فى كفيه فركهما، وبكل عزمه، طوح الهلب ليدور فى الهواء دورة ودورة ليستقر بين الجريد.

مطر.. مطر.. مطر..

فى الضحى، استشاط الحاج والى، غيظًا وكاد يجن لما رأى، من نافذة حجرته، الرجال والنساء والصبيان والبنات يروحون ويجيئون بسبائط البلح حمراء وصفراء وسمراء وهم يغنون:

يا جريد النخل العالى.. العالى

ميل، وارمى السلام.

هب مذعورًا، ينادى أحد خفرائه، الذى هرول إليه، وقال:

- تطلع السما وتنزل الأرض، وتقول لى من أين هذا البلح؟

هز الخفير كتفيه مندهشًا وقال:

- من النخل يا حاج.

هوى بكفه على وجه الخفير وقال:

- نخل «إيه» يا روح أمك؟!

وسار بنفسه إلى ترعة الخضـراوية، ليسـتطلع الخبـر اليقين.

كانت الأرض تمتلىء بالنخيل، وأحفاد حسـن الحـوفى يملأون الوديان.

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٥٠٤٠ / ٢٠٠٣



غاب النهار وليس من الممكن جعل الليل واقعى أشد سوادا . وبسطاء الناس فى حياتهم اليومية التلقائية تتشابك أيديهم .هناك الكلاب والحراس والاعتداءات .....إلخ، وقد تكون لحظة الحرية تمزيقا على الأسياخ.

وطريقة السرد تكشف وراء العادى والمألوف بشاعات. يرصد القاص التفاصيل ويربطها معًا فى تواز وتضاد . وفى البؤرة نجد الموت ومعادلاته داخل الحياة، ونجد الخيالات الشعبية الأسطورية ذات وجود مادى محركة للسلوك فى مفارقات دامية ضاحكة.

وتجسد القصص مرأى وملمس وطعم ورائحة أيام وليال لقطاع واسع من الناس! يستمد شعريته غير التقليدية من انقلاب الوضع والكشف عن تجل ولا توجد فكرة مجردة تحدد البناء الذى ينبع من منطق التفاصيل بعيدًا عن أن يكون قالبا مفروضًا.

إبراهيم فتحى

الغلاف / نسرين خشف